الإصلاح الاجتماعي

وكيف نبدأ فيه

لحضرة صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا

وزير المعارف العمومية

ما أكثر ما نسمع كلمات الإصلاح الاجتماعى، والشؤون الاجتماعية، والنظام الاجتماعى، وما أكثر ما نقرأ عنها . فوزارة الشؤون الاجتماعية تعمل من ناحية ، ولها مجلة كبيرة تخدم أغراضها . ورابطة الإصلاح الاجتماعى ، التى أتشرف برياستها ، لا تفتأ تفكر وتعمل وتعقد المؤتمرات ، تبتغى بذلك أن تحقق هذا الإصلاح فى ظل التضامن الاجتماعى ينتظم أهل الأمة جميعا . أفيستطيع أحد مع هذا كله أن يقول : ما هو الإصلاح الاجتماعى الذى يجب علينا أن نقوم به الآن فى مصر ، فإذا قمنا به انتظم ما اضطرب من أحوالنا الاجتماعية وعدنا إلى نوع من الاستقرار فى الحياة يكفل لنا الطمأنينة إليها والرضى بها ؟

منذ أربعين سنة نشر المرحوم قاسم أمين كتابه " تحرير المرأة " يدعو فيه إلى تعليم المرأة وإلى إطلاقها من رق الجهل ورق الحجاب . وكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو الإصلاح الاجتماعى فى عهدنا الحديث . أما قبل هذه الخطوة فكان آباؤنا وأجدادنا يعيشون فى نوع من الطمأنينة لحالهم والرضى عن معيشتهم ، ومع ما كان يتولاهم من قلق بدت آثاره فى سنة ١٨٨٢ كانوا يحسبون من الناحية الاجتماعية أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! ! وما من شك فى أنه كانت ثم قواعد ونظم فى الحياة يأسف من يذكرها لأننا فقدناها . ولقد استثارت دعوة قاسم أمين أشد المقاومة أول العهد بها ، بل لقد لقى صاحبها من إنكار الناس رأيه ومن قيامهم فى وجهه ما يشهد به بقاء اسمه وإجلالنا جميعا لذكراه ، بعد أن نجحت دعوته وظهرت آثارها فآمن بها الناس .

لكن تطور حياتنا الاقتصادية ، واطراد تقدمنا العلمى ، ويقظة شعورنا بقوميتنا وبشخصياتنا ، وازدياد اتصالنا بالعالم وتقديرنا لمركزنا فيه ، وإحساسنا بتبعاتنا وبكرامتنا إزاءه ، كل ذلك جعل التفكير فى الإصلاح الاجتماعى ضرورة أولية ، وبخاصة بعد الذى أصاب حياتنا الاجتماعية من اضطراب أرهف شعورنا بالحاجة إلى هذا الإصلاح ، وضاعف من حرصنا عليه .

بأى إصلاح نبدأ ؟ هذا سؤال يتبادر إلى ذهن كل من يفكر فى هذا الموضوع الحيوى. والإجابة عليه ليست يسيرة قبل أن نوفق إلى الإجابة على سؤال جوهرى آخر ، وهو : ماعلة الاضطراب الذى نشهده فى حياتنا الاجتماعية ؟

فالإجابة على هذا السؤال تشخيص العلة ، والإصلاح علاجها . والعلاج لا ينجع من غير تشخيص ، اللهم إلا أن يكون مصادفة وعلى سبيل التجربة . والمصلح كالطبيب ، لايجرب إلا إذا استعصى عليه الاهتداء إلى موضع العلة ولم يوفق إلى تبين مصدرها .

وكثيرا ما أدت التجربة المتروكة للصادفة إلى مضاعفة المرض ، وكثيرا ما انتهت فى حياة الأفراد إلى ماهو شر من العلة ومضاعفاتها .

وعلة الاضطراب الاجتماعى الذى نشكو منه هى ما أصاب عواطفنا إزاء الغير من ضعف جعل الواحد منا لايفكر إلا فى نفسه ، وجعلنا فى صلاتنا بالغير لانعنى من هذه الصلات إلا بمقدار مالها من نفع لذواتنا .

هذه الأنانية جعلتنا نقسى كل معنى للتضامن الاجتماعى ، وكل معنى للمثل الأعلى ، وجعلتنا لانرى فى الحياة خيرا إلا بمقدار ما يرضى أثرتنا وحبنا لأنفسنا . وليت هذه الأثرة كانت فى سبيل غاية انسانية سامية نريد من ورائها مجدا يبقى على الزمن فنذكر به . ولو أنها كانت كذلك لكان فيها شىء من الطموح إلى مثل أعلى نحققه لأنفسنا . لكن أثرتنا تنصرف إلى ناحية مادية بحتة تجعل الواحد منا لايفكر فى أمر إلا بمقدار مايجلبه هذا الأمر من فائدة مادية ، وتجعل علاقاتنا قائمة على أساس من هذه الفائدة ، حتى لانكاد نتخطاها إلى أى اعتبار سواها .

ولاشىء أفتك بحياة الجماعات من هذه العلة . فهى تضعف فى النفوس أقدس المعانى وأسماها : تضعف عواطف الأمومة والأبوة والبنوة والزوجية ، تمزق عواطف المحبة المتبادلة بين الناس فتقتل فيهم معانى الكرامة والنخوة والنجدة والوفاء ، تقضى فيهم على خلق الاعتراف بالجميل وتحل محله الحسد والتنابذ ، بل هى تفسد فيهم ما هو أسمى من ذلك كله وأكرم مكانا ، تفسد الإيمان المستنير بالله وتحل محله التعصب الذميم والكراهية الحمقاء . لذلك يفسون الحديث الشريف القائل " لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " وينطلقون الى كل ناحية ينثرون الشباك يتصيدون بها العاجلة ويذرون وراءهم كل معانى الإيثار والمثل العليا .

لست بحاجة الى أن أذكر ما ينشأ أثرا لذلك كله فى بناء النظام الاجتماعى بأية أمة من الأمم ، وما يترتب عليه من تداعى فكرة التضامن الاجتماعى فيها . وهذا هو السبب فيما تعانيه

مصر اليوم من اضطراب نشعر به فى حالتنا الاجتماعية ونلمسه أيدينا فى كل ناحية من النواحى . أما ونحن نلمس العلة ونعرف مصدرها ، أترانا لانزال قديرين على مقاومتها فى هذا الجيل الذى نعيش فيه ؟ وهل نستطيع أن نقضى على أسبابها فى أنفسنا ، وأن نقضى على أسبابها بنوع خاص فى الجيل الذى يأتى بعدنا ؟

أستطيع أن أؤكد مطمئنا أننا لم نفقد كل أسباب المناعة ، وأنا نستطيع لذلك أن نقاوم هذه العلة وأن نتغلب عليها الى حد بعيد . إن لنا من عقائدنا وماضينا ما أورثنا الإيمان الثابت بأن الحياة الدنيا متاع الغرور ، وأن الناس لا يجزون عن حياتهم بما حصلوا من ثروة أو بلغوا من جاه وسلطان ، وإنما يجزون بما قدموا من عمل صالح ، وأن خير الأعمال الصالحة البر والتقوى — البر الذى يجعلنا نؤثر على أنفسنا ولو كانت بنا خصاصة ، والتقوى التى تردنا عن السيئات وأن تبدت لنا نتائجها العاجلة فى ثوب مبهرج بديع الزينة والزخرف من تكاثر بالمال أو بالمكانة التى تحكمنا فى رقاب الناس . فاذا استطعنا أن نزيح الحجب التى رانت على هذا الإيمان الثابت فى نفوسنا بفعل الأنانية التى عصفت بالمجتمع المصرى كما عصفت بغيره من المجتمعات ، استعدنا الشىء الكثير من المناعة ، وعدنا الى حمى التضامن الاجتماعى الذى يقتضينا أن نعمل لغيرنا كما يعمل غيرنا لنا ، وأن نحب لغيرنا ما نحب لأنفسنا ، وأن نورث من بعدنا من الثروة الخلقية والمعنوية والمادية مثل ما أورثنا من قبلنا من هذه الثروة ، وأن نقوم بهذا كله على أنه واجب نؤديه لنرضى أنفسنا ولنرضى الله عنا ولنقدم الخير الى وطننا ومن تظلهم سماء الوطن من أبنائنا وحفدتنا والأعزاء علينا .

واذا كان ذلك واجبا علينا لمقاومة العلة فى أنفسنا ، فأوجب منه أن نقضى على أسباب هذه العلة حتى لا تصيب الجيل الذى يخلفنا . وإنما نقضى على هذه الأسباب بتربية هذا الجيل تربية صحيحة منذ نشأته . وتربية الجيل الناشئ كانت حجر الزاوية فى دعوة قاسم أمين الى تحرير المرأة ، وهى اليوم حجر الزاوية فى دعوتنا الى التضامن الاجتماعى تضامنا يمتد على الزمان كما يمتد على المكان .

كان قاسم أمين يدعو إلى تحرير المرأة وإلى تعليمها كى تحسن القيام بتربية أبنائها . ونحن اليوم نريد تضامن أبناء الوطن جميعا للتعاون على هذه التربية الصالحة نقيمها على أساس من الإيمان المستقيم والعلم الصحيح والعواطف السامية والعقيدة الثابتة بأن علينا فى هذه الحياة واجبا نؤديه لأمتنا من بنى جنسنا وبنى وطننا وبنى عقيدتنا وبنى الإنسان جميعا . فاذا قصرنا فى هذا الواجب وشغلنا عنه بأنفسنا وبحياتنا المادية وبالعاجلة فى هذه الحياة الدنيا متاع الغرور ، بؤنا من حياتنا بالخذلان وأن عبنا أثناءها فى أوحال النعيم .

أمران إذن يجب أن نبدأ بهما فى الإصلاح الاجتماعى : تقوية مناعة هذا الجيل ليعود الإيمان بمبادئ التضامن الاجتماعى ومحبة الغير والإيثار على النفس . ثم تربية الجيل الجديد تربية تجنبه ما نشكو منه اليوم من اضطراب ونتشئه بحيث يقدر الواجب تمام التقدير ويعمل للخير العام ويرفع لواء الإيثار على كل لواء ومقام الأخوة القومية والأخوة الانسانية فوق كل مقام .

بذلك يعود التضامن الاجتماعى قويا بين أبناء مصر ، وبذلك يقوى بناؤنا القومى فيهيىء لنا أسباب النهوض الى غايات المجد والعظمة .

إن المجهود الواجب بذله لتحقيق هذين الأمرين لمجهود ضخم ، ولن تستطيع هيئة أن تدعى القدرة على القيام به منفردة . بل لا تستطيع الحكومة مع ما بين يديها من أسباب القوة ووسائل العمل أن تنفرد به . فاذا قامت كل هيئة بواجبها منه ، ثم تضامنت الهيئات جميعا فى توجهها اليه ، أمكن الوصول منه الى أعظم حظ فى أقصر زمن .

محمد حسين هيكل

— انحطاط ألف من العلية أحمد عاقبة من ارتفاع واحد من السفلة .
سابور بن اردشير

— من الناس من نخلفهم ولكنا لا نعوضهم . ارنست رينان

— قيل للأحنف : بم سدت ؟ فقال : « لو علمت أن الناس كرهوا الماء ما شربته » .

— سئل حكيم : أى أولادك أحب إليك ؟ فقال : « صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يشفى ، وغائبهم حتى يعود » .